البيت الذى لا يتهدّم

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

سرنى أن قرأت فى إحدى الجرائد الصباحية تحت عنوان " دعم بناء الأسرة " ان من بين المشروعات التى أوشكت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تفرغ من بحثها فيه هو مشروع قانون يرمى إلى دعم بناء الأسرة والتخفيف من مضار الطلاق .

امتلأت نفسى غبطة لهذا الخبر السار واستبشرت خيرا بوزارة الشؤون الاجتماعية التى تعطينا فى كل يوم مثلا جديدا على تغلغلها فى أحوال المجتمع، واكتشاف نقط الضعف فيه . ولعمرى إن هذه الوزارة الفتية كان لا بد لها من أن توجد منذ عشرات السنين كى تأخذ بيد المجتمع .

كان اهتمام وزارة الشؤون الاجتماعية فى هذا الأمر صدى لصيحات عديدة ليست وليدة اليوم . وقد كانت مقالتى فى العدد قبل الأخير من مجلة "الشؤون الاجتماعية — كاشفوا مواطن الداء — تتحدث بوضوح فى مضار تعدد الزوجات وأثره فى هدم الأسرة المصرية وانحلالها ، ومضار ترك أمر الطلاق عندنا مباحا إباحة مطلقة بلا قيد ولا شرط. وناشدت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تعنى بهذا الأمر ، وها هى تبرهن لنا من جديد على أنها يقظة لا تغفل عن مصالح الشعب .

وموضوعى اليوم الذى عنونته بعنوان "البيت الذى لايتهدم" لا يخرج كثيرا عن نطاق موضوعاتى السابقة التى تدور جميعها حول الأسرة المصرية وضرورة السمو بها إلى مصاف أرقى الأسر الغربية .

فالبيت الذى لا يتهدّم هو البيت الذى قوامه (رجل وامرأة) . والمرأة التى أعنيها هنا هى تلك المرأة الكاملة الأنوثة التى تعرف حق وظيفتها المقدسة فى الحياة ولا تخرج عما سنته الطبيعة لها فتزاحم — غير مضطرة — الرجل فى ميادين الأعمال .

والرجل الذى أعنيه هنا أيضا هو ذلك الأسد الغيور الذى يشعرنا دون كلفة أو عناء باكتمال رجولته وقوة شخصيته ، لا ذاك الذى يزاحم المرأة فى أنوثتها وما طبعت عليه من رقة ونعومة .

ولا ريب أنه لو وجد هذا الرجل ووجدت هذه المرأة ، وعرف كل منهما واجبه المسؤول عنه أمام الله والوطن ، وعاش كل منهما أمينا على هذا الواجب ، شريفا فى أدائه حريصا على سلامته لما أمكن لأسرتنا المصرية أن تتهدم .

وإذا سلمنا بأن التربية الأولى هى التى يتوقف عليها إنتاج هذا النوع الإنسانى الكامل لوجدنا أن المرأة هى المسؤولة عن أخلاق أبناء الأمة ، وبين يديها وحدها مصيرها الأدبى والمادى .

وإن كنا نضع هذا العبء الثقيل على أكتاف المرأة ، فلا ننسى أن نقول بأنه ليست كل امرأة بالتى يمكننا أن نوليها هذه الثقة العظيمة ونركن اليها ، إنما هذه المرأة هى تلك التى تكلمت عنها فى أول الموضوع ، المرأة المثقفة ، العاقلة التى تعيش فى كنف رجل كذلك الذى تكلمت عنه فى أول الموضوع أيضا . رجل يعرف حقوقه وواجباته نحو أسرته ، فينظر إلى زوجته نظرة المعلم ، والأب الشفوق ، والأخ ، والصديق . ويهذب مايحتاج فى أخلاقها من تهذيب ، لا ذاك الذى يشجعها بضعفه على التمادى فى طرقات الجنون والاستهتار ، فيشب أولادها على غرارها ، متشبعين بمبادئها ، متشبهين بنواحى الضعف فيها .

ولا يمكننا أن نتغاضى عن سوء نشأة أولاد الزوجات المستهترات . فإننا إذا بحثنا عن أسباب انهيار أخلاق بعض فتياتنا وفتياننا فى مصر ، لرأينا أن السبب فى ذلك إنما يرجع إلى تلك الحرية الخاطئة التى يفهمونها بمساعدة أمهاتهم الضالات مما ترتب عليه اندثار الكثير من عاداتنا القديمة الفاضلة .

والأدلة على اندثار تلك العادات والأخلاق كثير ، يظهر بعضها جليا فى تلك الأخبار التى تطالعنا على صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية فى مسائل الزواج والطلاق . فلو أننا تنبهنا جيدا لتلك الأخبار ، لرأينا فيها مايدهش ، ولاشمأزت نفوسنا من مثل خبر

طلاق فلانة من زوجها الرابع لاستئناف حياتها الزوجية الجديدة فى كنف الخامس ، بنفس السهولة التى تخلع بها المرأة قفازها القديم لاستبداله بآخر جديد . وفلانة هـذه مع الأسف ومن يشبهونها ، من طبقاتنا الكبيرة المعروفة . وأخشى ما أخشاه فى هذا الأمر ، حب التقليد الذى نراه متفشيا بشكل واضح بين فتياتنا المصريات والخوف من أن يعود علينا هذا التقليد بالعار والانهيار الخلقى .

فلا ينسى أحدنا عمق تلك المهاوى التى تجتازها الفتاة الفقيرة لترضى فى نفسها نزعة التقليد العمياء ، ومع ذلك كيف نلومها إذا تشبهت بصاحبتها الغنية ، وإن كانت قد دفعت الثمن غاليا ؟ ... أليس الطفل دائما يقتدى بالكبار ؟ ومن على الأرض يهفو لرؤية ما فى السماء .

أما من جهة ضعف أخلاق الكثير من شبابنا فليس أدل عليه من تسكعهم طول النهار أمام المقاهى ، وطول الليل أمام الصالات الحقيرة ودور اللهو . وانكبابهم على الخمر والملذات .

كل تلك أدلة ملموسة على ضعف الأخلاق وانتشارها فى أغلبية أبناء وبنات الجيل الجديد مما جعل بيتنا المصرى لا يستقيم له عماد حتى الآن .

أليست هى الأم المدلّلة ، الضعيفة الأخلاق هى التى تخرج لنا هؤلاء الحشرات إلى قلب المجتمع ليلوثون وطنيتنا ، أليست هى الأم التى ترك لها زوجها الحبل على الغارب هى التى تشجع ابنتها الغرة على إساءة استعمال حريتها فيما يعن لها من المساوئ متشبهة بها فى كل ماتسمع وما ترى ، وهى التى تقدم لها بطريق مباشر أو غير مباشر السجائر ، وتحثها على الخلاعة ومصاحبة الشبان بحجة البحث عن الزوج المنشود ، والفتاة حائرة مضطربة ، تعطى كلا من قلبها جانبا حتى تجد ذلك البطل الخيالى الذى يمكنه أن يسعد فتاة مثلها لها من التجارب مالها ، ولا حاجة بى إلى القول بأن تلك الفتاة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة تحافظ على كيان أسرتها وتفيد وطنها .

كذلك أليست الأم الجبانة الرعديدة التى تركها زوجها تعيش فى محيط جهلها ، دون أى جهد منه فى تنمية مداركها وتهذيبها ، هى التى تولول وتملأ الدنيا عويلا وصياحا ، ثم تقيم الدنيا وتقعدها عند ما يطلب منها الوطن فتاها الذى تركه فى ذمتها طفلا كى يسترده رجلا ؟

هذبوا أخلاق المرأة أولا . عودوها على استغلال حريتها فى حدود الكرامة والشرف ، وفيما يعود عليها وعلى وطنها بالرفعة والرقى ، دعوها تعيش فى محيط من النور يريها حدود وظيفتها الانسانية السامية فى الحياة . ثم انتظروا منها رجالا بواسلا يفخر بهم الوطن وفتيات صالحات يسمو بهم المجتمع وتستقيم نواحى الاعوجاج فيه .

ومن أهم واجبات المرأة الكاملة نحو وطنها ، أن تبث فى نفوس النشأ روح الشجاعة الأدبية وحب التضحية فى سبيل الوطن ، كى يشبوا شجعانا لا يعوقهم عائق عن أداء واجباتهم . كما يجب عليها أن تسير بكل من الفتى والفتاة إلى الطريق الذى خلق له كل منهما والذى يجب أن يسيرا فيه ليشب كل منهما ملما بحقوقه متشبعا بواجباته .

يجب عليها أن تكون شجاعة فى تأدية واجبها نحو أولادها فتبتعد بهم عما يلوث نفوسهم البريئة من مظاهر الحياة الكاذبة ، كما تقتصد فى إبداء حنانها لهم لئلا تعودهم التدلل والخنوع . وهـذا أخطر مرض نفسانى يصاب به الأطفال ، ولا يمكن لأطفال هذا شأنهم أن يكونوا رجالا كما ينبغى أن يكون عليه الرجال .

وأرجو ألا يكون مفهوما بأنى أدعو إلى ضربهم أو إيذائهم ، فإن هذا ولاشك أفظع عاقبة من التدلل ، إذ يخلق منهم رجالا ضعافا جبناء ، يخيفهم القول ، ويهزهم الوعيد ... ففى استطاعة المرأة القوية الروح أن تفيض على أطفالهـا من روحها قوة وعزما وأن تبث من مبادئها القويمة ، حب الخير فى نفوسهم ، وأن تريهم بأعمالها وحبها لوطنها وحماستها فى سبيل واجبها مايدعهم يقتدون بها ويتشبهون بوطنيتها وشجاعتها بغير جهد منها أو عناء .

ومن أهم مايجب عليها الاهتمام به الابتعاد بهم عن قراءة الروايات السقيمة ، وسماع الأغانى الرخيصة المبتذلة المـائعة التى شاعت هذه الأيام والتى تشكر لوزارة الشؤون الاجتماعية العناية بمحاربتها ، كما تمنعهم منعا باتا من مشاهدة ماتضمه دور اللهو والصالات العامة عندنا فى مصر من المخازى والتهتك والاستهتار .

فاذا أمكن للمرأة المصرية أن تقوم بهذا الواجب المقدس بدقة وأمانة لارتقى دون شك مستوى أسرتنا المصرية ولمـا تفشت فيها روح الهدم والانحلال .

وإذا كنت قد وجهت معظم حديثى للمرأة ، فان الرجل وهو محور العائلة هو فى الواقع حجر الزاوية فى بناء البيت وعليه حمايته من التهدم ، فكما أن الزوجة مسئولة عن أخلاق أولادها ، فالزوج مسئول عن أخلاق زوجته التى تربى هؤلاء الأولاد .

ومن أول واجباته نحو أسرته ، أن يفهم جيدا مسؤولية الزواج ، فيغير من منهاج حياته القديم حيث كان لا هم له إلا الأكل واللهو والنوم فيهجر داء المقاهى ويحرص على كل دقيقة من وقته فلا يضيعها فى غير موضعها وينظر الى البيت نظرة تقديس واحترام وكأنه الجنة الموعودة على الأرض. وأن زوجته هى ملاك تلك الجنة ، فيعطيها كل رعايته واهتمامه يشركها معه فى مطالعاته والجديد من معلوماته ، ويعكف على تلقينها بالعظيم من مبادئه ويقوم نواحى الاعوجاج فيها ، ولا يدعها تختلط بغير الفضليات من الآنسات والسيدات ، ويحثها دائما على قضاء وقت فراغها فى خدمة المجتمع وعمل الخير ، ويعلمها كيف تستغل حريتها كامرأة فاضلة صالحة لأسرتها ووطنها وأن تكرس حياتها لهذا الوطن بأن تخرج له ثمرة رقى المرأة ومعرفتها وثقافتها ، وأن تظهر للعالم بأن فى يدها الصغيرة مفتاح سعادة الأسرة المصرية ودعامتها .

* * *

ويا حبذا لو أضافت وزارة الشؤون الاجتماعية يدا جديدة إلى أياديها البيضاء ، بأن تنشىء فى مدرسة الخدمة الاجتماعية قسما خاصا برقى الأسرة المصرية وتدعيم البيت المصرى ، وأن تسمح فيه للمثقفين من الأزواج والزوجات بالبحث فى مسألة الأسرة المصرية والعمل على درء ما يهددها دائما من تهدم وانهيار ، وليكن هذا القسم باسم (قسم الثقافة الزوجية) مثلا ، وهذا دون شك سيكون له شأن كبير فى دعم بناء الأسرة وخدمة المجتمع .

زينب محمد حسين

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى وعليه من لبس المجوس مرقع
بطرائق سود وبيض لفقت وكأنه فيه غراب أبقع